باب المقالات

﴿ الحق والباطل والقوة ﴾

٣٤ : ٤٩ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ١٧ : ٨١ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * ١٨ : ٢٩ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ *

مضت السنة في المغلوبين على أمرهم ، المقهورين في أرضهم ، أن يعتذروا عن أنفسهم ، بدعوى أن القوة هي التي غلبتهم على حقهم ، وأنهم غير مذنبين ولا مقصرين ، ولا مسرفين ولا مضيعين ، وجرت عادة الغالبين على أمرهم ، والقاهرين في حكمهم ، ان يحتجوا لأنفسهم بأنهم أصحاب الحق الذي يعلو ولا يعلى ، وأن الحق هو الذي جعل كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم السفلى ، وقد يعتور الأمة الواحدة القوة والضعف والعز والذل فتدعي في طور قوتها وعزها أنها اعتزت بالحق وغلبت ، وفي طور الضعف والذل أنها أخذت بالقوة فقهرت ، وأنها خليفة الحق في الطورين ، لم تتعد حدوده في حال من الحالين ، وتلك سنة الله تعالى في الافراد أيضاً يدعي الرجل الحق لنفسه ما ظفر ، ويعتذر عنها بالقوة اذا هو غُلب وقهر ، وهذا الغرور من الانسان قد أضله عن طريق الحق حتى لا يكاد يفهم معنى كلمة (الحق) ومدلولها الصحيح . وما نقل الينا قول عن غالب يتعزز فيه بالقوة على الحق ، الا تلك الكلمة المأثورة عن بسمرك « القوة تغلب الحق » وقد أرسلها مثلا ، وهي لا تصح الا تأويلا وجدلا ، ولو غُلب الحق لما كان حقاً . والحق أن الحق قد يخفى ، وقد يترك و ينسى ، ولكن ما صارع الباطل الا صرعه ، ولا قارعه الا وقرعه ، « وانما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه » ، والقوة انما تظفر اذا كانت شعبة منه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

الحق عبارة عن الشيء أو الأمر الثابت المتحقق في الواقع والباطل هو ما لا ثبوت أو لا تحقق له في نفسه وما لا ثبوت له ولا تحقق لا يمحق ما كان ثابتا متحققا

كما هو الشأن في الموجود والمعدوم والمعلوم والموهوم ، وهذا مما لا مجال فيه لاختلاف العقلاء . إن يختلفون الا في الحقوق العرفية والوضعية ، والدينية والشرعية ، وما تحكم فيه الشرائع من الأمور الاجتماعية وفي كل ذلك حق وباطل لا يتنازعان الا ويكون الحق هو الغالب والباطل هو المغلوب واننا نبين ذلك ونذكر مواضع غلط الناس فيه ومناشئ شبهاتهم فنقول ان الحق والباطل يتنازعان في خمسة أمور كلية وهي (١) الفلسفة والنظريات العقلية، الوجود والسنن الكونية (٣) السنن الاجتماعية (٤) القوانين والمواضعات العرفية (٥) الدين والشريعة الالهية

الفلسفة والنظريات العقلية

اختلف الناس في الفلسفة والمسائل النظرية في القديم والحديث ومنهم المحق والمبطل فيقول من يظن ان الباطل يغلب الحق ان كثيرا من الآراء الباطلة في ذلك كانت رائجة لا ينازع فيها أحد وكثير منها كان موضوع النزاع وكان أكثر الباحثين فيه على الباطل ، ولا يزال يظهر للعلماء في كل زمن وكل جيل خطأ كثيرين من السابقين والمعاصرين فيظهر بذلك ان الباطل كان هو الغالب فان كنت تقول لا عبرة الا بغلب دائم ، فانك لا تقدر ان تثبت الدوام لحق ولا لباطل ، فيكفي في اثبات قوة الباطل وظهوره على الحق ان يظهر عليه زمنا طويلا : ودفع هذا الظن سهل وان كنا نعترف بأن الحق والباطل في الآراء النظرية والفلسفية من أخفى الأمور وأوغلها في الابهام . ذلك أن التنازع بين الحق والباطل لا يتحقق هنا ما دام كل من المتناظرين في المسألة يجادل بالنظريات ولم ينته بدلائله الى احدى اليقينيات التي لا نزاع فيها . وبيان ذلك أن المسألة ما دامت نظرية من الجانبين فالتنازع انما يكون بين الدليلين لا بين المدلولين والحق في الدليل هو إفادة اليقين فما دام نظريا فهو غير حق وانما هو موقوف أو باطل يعارض مثله فاذا انتهى أحد المتناظرين الى اليقين البديهي في المسألة فهو صاحب الحق وهو الغالب سواء أذعن له مناظره أو كابره . وما كان الغلب والسلطان لتلك المسائل النظرية الباطلة في الفلسفة العليا وغير العليا ذلك الزمن الطويل الا لأن الحق فيها كان خفيا أو غير معروف لأهلها . بل نقول ان في طرق الاستدلال نفسها حقا وباطلا فالحق هو ما وافق شروط القياس

المنطقي وأعني بكونه حقا ان النفس فطرت على الانتقال من المقدمات المرتبة على ذلك النحو من الترتيب المعروف في أشكال القياس إلى المطالب التي هي النتائج فاذا كانت المقدمات مسلمة فلا مندوحة للنفس عن التسليم بالنتيجة . وقد يكون صاحب الدعوى الحق غير قادر على نظم الدليل الحق مع كون الدعوى نفسها غير بديهية فاذا غلبه مناظره المبطل في الدعوى حينئذ فلا بد ان يكون أقرب منه الى الحق من طريق الاستدلال وأن يكون قد أقنعه ببعض المقدمات الباطلة وفي هذه الحال يكون مبطلا ومن ناحية الباطل قد أخذ — وهو ماسلمه من المقدمات — لا من ناحية الحق وهو أصل الدعوى التي نطق بها على غير بينة وبغير بينة . ولو شئت لجئت في هذا الاصل بالأمثلة والشواهد التي تجليه أكمل التجلي ولكن القصد بهذا المقال الى غيره ممارى الناس مصرين على الخطأ فيه وفي خطأهم الضلال البعيد والخسران العظيم

الوجود وسنن الكون

كل وجود حق والعدم باطل لا حقيقة له، وكل نظام في الطبيعة والخليقة فهو حق والخلل فيها باطل لا تحقق له، والخلل الصوري الذي يعبر عنه علماء الكون بفلتات الطبيعة له سنن خفية أي نواميس لم يطلعوا عليها وهم يتوقعون اكتشافها ويرجونه ٣:٦٧ « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » ٧:٣٢ «الذي أحسن كل شيء خلقه» ولا تنازع بين الوجود والعدم ولا بين النظام والخلل وإنما يقع التنازع بين الناس في فهم ذلك والعلم به فمن كان أعلم بالوجود والنظام كان أعلم بالحق وأقرب الى الحق وكانت له الغلبة بالحق . وهذا ظاهر في نفسه وسيادة العالمين بحقائق الوجود وسنن الله في الكائنات على الجاهلين بها مشاهدة لا ينكرها المسودون المغلوبون بجهلهم وباطلهم وان كانوا يجهلون ان علم من سادوهم هو الحق وأنه سبب لسيادتهم، وأنهم هم بجهلهم على باطل وبه كانوا مغلوبين على أمرهم، ومقهورين في أرضهم وديارهم ، وان منهم المسلمين الذين يقول كتابهم ١٠: ٥ «هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * ويقول ٤٥: ٢٢ «وخلق الله

السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون» وفي معناها آيات ولا نرى شعبا إسلاميا يعتقد بان سعة العلم بالسموات والأرض من الحق الذي تعتز به الامم، وان جهلت الامة وهلكت، فقد جزيت بما كسبت، وظلمت نفسها وما ظلمت،

السنن الاجتماعية

للكون سنن في تكوّن الأحجار الكريمة وغير الكريمة كالصخور وفي نموّ النبات وحياة الحيوان وفي اجتماع الاجسام وافتراقها وتحللها وتركيبها وهي ما عنيناه بالاصل الثاني . وللبشر سنن خاصة بهم في حياتهم الاجتماعية عليها يسيرون وفيها يتقلبون قوتهم وضعفهم وغناهم وفقرهم وعزهم وذلهم وسيادتهم وعبوديتهم وحياتهم وموتهم كل ذلك غاية لاتباع سنن الله في السير على أحد الطريقين المشار اليهما بقوله تعالى في الانسان ٩٠ : ١٠ «وهديناه النجدين» فهذه السنن حق وتنكبها خروج عنه الى الباطل . وما زال العارفون بسنن الله تعالى في الامم، هم الآخذين باطراف السعادة من أمم، ينتصرون على الجاهلين بها من المبطلين من حيث هم مبطلون وهو ما به الاختلاف وان كان الغالب القاهر مبطلا في شيء آخر والمغلوب محق في مخالفته له فيه

لم يعرف كتاب قبل القرآن نطق بأن للأمم في قوتها وضعفها وحياتها وموتها سننا ثابتة لا تتبدل ولا تتحول كقوله في سورة الانفال ٨: ٣٨ «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين» أي فانه يحل بهم ما حل بمن قبلهم ممن عاند الحق وقاومه . وقوله في سياق الكلام على الانبياء وأحوال الامم في سورة الحجر ١٤: ١٣ «وقد خلت سنة الأولين» وقوله في سياق الكلام في بذل المال والحرب ٣: ١٣٨ «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وفي الآية الثالثة بعد هذه الآية «ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس» الآيات

فهذه الآيات البينات حق وما ترشد اليه من سنن الاجتماع حق فالجهل بسنن الاجتماع باطل وترك الاعتبار بها في شؤون الامم باطل فهل وجدت أمة

على سطح هذه الارض عرفت هذه السنن وسارت عليها ثم قاومتها أمة أخرى تجهلها أولا تعتبر ولا تهتدي بما عساها تعرف منها ثم كانت الجاهلة الضالة هي الغالبة فيقال ان الباطل قد يغلب الحق ؟ كلا ما كان ذلك ولن يكون . ومن العجائب والعجائب جمة ان يكون المسلمون في هذا العصر أجهل الامم كلها بسنن الله تعالى في البشر حتى أن من يدعوهم الى تعلمها وتعلم مصادرها وهي تواريخ الامم يعدونه رجال الدين منهم جانيا على الدين صادًّا عنه لاسيما اذا كانت دعوته موجهة الى طلاب علوم الدين في مثل مدرسة الازهر !! فأين هذا الدين الذي يعد العرفان بسنن الاجتماع صدًّا عنه وجناية عليه من القرآن الذي هو أول كتاب ارشد الى هذه السنن ؟ واذا غلبت كل أمة مهدية بهذه السنن في كسبها وعملها وسياستها وحروبها على الأمة الجاهلة بها الضالة عنها وسادت عليها فهل يصح ان يقال ان الباطل قد غلب الحق لان دين المسلمين هو الحق وأديان الغالبين عليهم هي الباطلة ؟ كلا ان كل مغلوب فهو بسبب الباطل قد غلب وكل غالب فهو بسنن الحق قد غلب . أينصرون و يسودون ، وهم يفسدون في الارض ولا يصلحون ، وحكامهم يظلمون ولا يعدلون ، والله تعالى يقول في بيان سننه الحق ، ١١ : ١١٦ « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين * ١١٧ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون * » فسروا الظلم ههنا بالشرك والمعنى ان الله تعالى لا يهلك الامم بسبب الشرك اذا كانت مصلحة في الأعمال ولكن يهلك المفسدين الذين لا ينهون عن الفساد لاسيما اذا كان منبعه امراؤهم وملوكهم . أو المعنى ما كان ليهلكها بظلم منه لانه منزه عن الظلم وهي لا تستحق الاهلاك لأنها مصلحة في العدل والعمران

القوانين والمواضعات العرفية

لكل أمة من أمم الحضارة قوانين تسوس بها بلادها ولكل قبيلة من القبائل البدوية عرف ومواضعات ترجع اليها في شؤونها الاجتماعية . وللدول قوانين في الحقوق العامة والمصالح الخاصة . فهذه القوانين والمواضعات حقوق

عرفية فالآخذ بشيء من هذه الحقوق يكون هو الغالب لتاركها مادامت الامة والدولة أو الدول التي جعلت القانون حقا في عرفها حاقة له فاذا رجعت الامة عن عرفها أوالدولة عن قانون لها في بلادها أو الدول عن بعض القوانين العامة لم يعد ذلك حقا لان حقيته لم تكن لذاته وانما كانت للعرف الذي يكفله أهله الواضعون له وقد زال

مثال ذلك اعتداء دول أوربا على الممالك المشرقية وافتياتها على حكومات هذه الممالك تركيا فما دونها وقد علم من القوانين العامة انه ليس لدولة أن تفتات على أخرى في ادارتها الداخلية ولكن أوربا تفتات وتغلب فهنا يظن الجاهل بالفصل بين الحق والباطل أن الباطل قد غلب الحق بالقوة ووجه الخطأ في هذا الظن أن هذا الحق الذي ندعي ان أوربا سلبته من تركيا في مصر أو كريت مثلا اما أن يكون حقا طبيعيا يملك ويحفظ بمقتضى سنن الله في الاجتماع البشري أو حقا عرفيا يملك ويحفظ بمقتضى القوانين العامة التي تعترف بها الدول وتكفلها فان ادعى المدعي الشق الأول فاننا نمنع دعواه ونقول ان سنن الاجتماع لا تتبدل ولا تتحول كما نطق الكتاب العزيز ودلت التجربة والمشاهدة لأن واضعها وحافظها هو العزيز الحكيم وهي تنيط الغلبة ودوام السيادة بالعدل والعلم بالسنن والاصلاح في الارض والمنعة والتقوى والاستعداد للحماية بالقوة وأعظم القوة فيها قوة الامة المستقلة العارفة بحقوقها ثم القوة الآلية وذلك غير متحقق في تركيا كأوربا فلا حق طبيعي هنالك. واما الحق العرفي فقد قلنا انه ليس حقا ذاتيا وانما هو حق ما كفله واضعوه المعترفون به وقد اتفقت الدول الكافلة للقوانين العامة على ان لا تعامل دول المشرق بما تعامل هي به وأن تفتات عليها بحكمة حتى لا يفضي الافتيات الى الحروب، التي يخسر فيها الغالب والمغلوب، فتبين بهذا أن الباطل لم يغلب الحق في هذه المسألة بل الحق هو الغالب كما أخبر الله تعالى. وذلك أن دول أوربا الغالبة عارفة بسنن الكون وسنن الاجتماع ومهتدية بها وهي الحق وبها الغلب والسلطان، كما تقدم البيان مؤيدا بالقرآن، فان قيل ان أوربا تظلم في البلاد التي تفتات فيها: قلنا نعم ولكن ظلمها دون ظلم حكام البلاد المفتات عليهم فباطلها أقل وعدلها أكثر فحقها أكبر

وهكذا غلب الحق الباطل ولكن أكثر الناس لا يعلمون

ومن هذا القبيل غلب ألمانيا وانتصارها على فرنسا فان سببه العلم بسنن الكون وسنن الاجتماع والعمل به ولذلك قال بسمرك : غلبنا بالمدرسة : وقوله هذا حق وأما قوله: القوة تغلب الحق : فقد لبس فيه الحق بالباطل فالقوة الباطلة لا تغلب الحق ولكن القوة الطبيعية الاجتماعية تغلب الحق العرفي وحينئذ يكون الحق قد غلب حقا أضعف منه في الظاهر بل هو لم يغلب الا الباطل

يقول الظالمون في الحق غير الحق ان القضاة يظلمهم ووكلاء الدعاوي يحيلهم وخصمهم كثيرا ما يؤيدون المبطل في دعواه حتى يكون له الفلج والظفر : ونقول ان هذا القول صحيح ولكنه لا يفيد المطلوب فان تأييد الباطل اذا كان من الحكام فلا قانون ولا شريعة وانما هو الهوى والظلم يتحكمان وهما من الباطل الذي لا يغلبه الا حق من جنسه وهو السلطة العادلة فاذا تنازعت سلطة عدل مع سلطة ظلم وغلبت الثانية الأولى تكون المعارضة صحيحة . وأما الدعوى فليست من جنس السلطة فيقال له يجب أن يغلب حق الأولى على باطل الثانية . وان كان الحاكم عادلا والخصم المبطل أو وكيله المحامي عنه ألحن بحجته وأقدر على البيان من الخصم المحق أو وكيله فالتغالب اذاً بين الحجة والحجة ولم تنس ما قلناه فيها عند الكلام في الفلسفة والنظريات العقلية

ان الانسان يظلم والظلم من الباطل حتى قيل ان الظلم طبيعي في البشر ومنه قولهم : الظلم كمين في النفس القدرة تظهره والعجز يخفيه : وقال المتنبي

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهذا قول بأن الانسان جبل على الباطل وهو على ظهور شبهته غير صحيح وانما الصحيح هو ما قاله الخالق الحكيم ، في السورة الخامسة والتسعين ، وهو

بسم الله الرحمن الرحيم

والتين والزيتون ٢ وطور سينين ٣ وهذا البلد الامين ٤ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ٥ ثم رددناه أسفل سافلين ٦ الا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات فلهم أجر غير ممنون ٧ فما يكذبك بعد بالدين ٨ أليس الله باحكم الحاكمين

أكد لنا القول عز وجل بأنه خلق الانسان في أحسن تقويم اذ أقسم على ذلك بما ذكرنا بعهد الفطرة ومعاهد ظهور الشريعة ذلك انه خلقه وجعل له من الحواس ما يدرك به ما يحتاج الى ادراكه في حفظ نفسه وتوفير منافعها ودفع المضارّ عنها ومن العقل ما يميز به بين المدركات الحسية فيعرف صوابها وخطأها وما يحكم به على هذه المشاعر المدركة فيوجهها الى الاشتغال بالانفع والاصلح فهو مجبول على أن يختار ماهو أنفع وأصلح . ولكنه لما خلق مدنيا مستعدا للكمال الشخصي والنوعي بالعمل التدريجي والتعاون . والعمل لا يكون الا بعلم والعلم لا يكون الا بالكسب كان هذا الانسان عرضة الجهل بوجوه المصالح والمفاسد والمنافع والمضارّ سواء كانت للأفراد أو الأمم والشعوب، والجهل من الباطل وبه ردّ الانسان بدخوله في طور الحياة الاجتماعية الى أسفل سافلين فكان افراده وجماعاته يجنون على أنفسهم ويظلمونها من حيث يظنون أنهم ينفعونها ويؤيدون حقوقها ففطرتهم تطلب الحق الذي فيه المصلحة والمنفعة وعقولهم تخطئ في تحديده فتقع في الباطل فكانوا محتاجين الى مساعد للفطرة والعقل يحدد لهما الحقوق النافعة ويميزها من الاباطيل الضارّة وذلك هو الدين الذي نفثه روح الحق في روع كل واحد من أولئك الشارعين الذين ظهروا في معاهد منبت التين والزيتون وطور سينين وفي ذلك البلد الامين (مكة المكرمة) وغيرها فصلح به امر الناس وساد الحق على الباطل ما كانوا يهتدون بتلك الشرائع إيمانا وعملا صالحا كما قال عز وجل . فالباطل ليس من منزع الانسان بطبعه ولكنه من العوارض اللازمة له من حيث هو مريد مختار في علمه وعمله كاسب لهما بالتدريج . ولذلك أجمع الحكماء في هذا العصر على سنة من سنن الاجتماع التي جاء بها القرآن في شأن الحق والباطل وهي ما يعبرون عنه بالانتخاب الطبيعي وقد بينها الله تعالى بقوله ٢ : ٢٥٠ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » وقوله ٢٢ : ٣٩ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد الخ وقوله ١٣ : ١٧ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل

السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جُفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال » و بالآيات التي افتتحنا بها هذا المقال · وبمثل قوله ١١ : ٤٩ ان العاقبة للمتقين » وقوله في السحر الذي هو باطل لاحقيقة له ١٠ : ٨١ ان الله لا يصلح عمل المفسدين * ٨٢ ويحق الحق بكلماته » وقوله بعد ارشاد الأمم منه النهي عن الفساد في الأرض بعد اصلاحها ٧ : ٨٦ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين * وقوله بعد بيان أنه ماخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار * فاتفاق الحكماء على مضمون هذه الآيات وأمثالها في هذا العصر هو اعتراف بأن للحق الغلبة والسلطان على الباطل اذاهما وجدا وتنازعا وعلى أن الانسان مفطور على تغليب الحق على الباطل لولا مايعرض له من الخطأ في التمييز بينهما وانما يسود الباطل في غيبة الحق أو غفلته عنه

ذكرت لصديق لي هذا المبحث قبل أن أتم هذا المقال فأخبرني انه يحفظ عن الحكيم السيد جمال الدين الافغاني تمثيلا في مصارعة الحق للباطل معناه أن الحق كان يصرع الباطل و يصفعه فرأى الباطل ان لاطاقة له به فاستشار أعوانه فأجمعوا أمرهم وهم يمكرون على أن يكيدوا للحق كيدا فجاءوه يلقون اليه السلم و يدعونه الى مأدبة أعدوها له فلما حضر أجلسوه على بساط جميل تحته حفرة عميقة فوقع في الحفرة فطفقوا يهيلون عليه التراب حتى دفنوه ثم جلسوا فوق الحفرة لئلا يخرج منها فيبطش بصديقهم الباطل فكان ينتفض بقوته العظيمة يحاول الخروج وهم يتحاملون بأثقالهم عليها خوفا منه والباطل يسرح و يمرح آمنا من رؤية الحق له لأن أولياءه حالوا بينهما ولكن الحق ما عتم أن انتفض انتفاضة نسف بها أولئك المتثاقلين وخرج الى الباطل فأوقع به ودفنه وأراح الناس من شره ·

وحاصل التمثيل ان الباطل انما يسود و يثبت حيث لا يوجد من يقوم بالحق و يقاومه به وأن ذلك لا يدوم · فكل دولة أو حكومة ظالمة تخالف قوانين العدالة في الارض وتهضم حقوق الرعية فهي انما تسود بباطلها ما دامت الرعية دافنة للحق

دائمة له فيكون باطل الحكومة غالبا لباطل الرعية حتى اذا ما انتشر الظلم وتفشى وذاق آلامه الجماهير فاستصرخوا الحق واستغاثوا به لباهم مسرعا وصال على باطل الحكومة الظالمة فجندله وربما جندلها معه فاذا استماتت الرعية وأنست بالظلم فان سنة الكون تسلط على الحكومة الظالمة حكومة أجنبية عادلة أو ظالمة تفتك بها وتقلص ظلها ثم يكون بقاء الحكومة الثانية على سنة الله في الحكومة الاولى ٣٥ : ٤٣ فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا *

الدين والشريعة الالهية

ما قلناه آنفا يثبت أن الدين في جملته حاجة طبيعية للبشر وان كانت أحكامه التفصيلية مما يجري فيه اختيارهم فهم يحكمون فيها عقولهم وأفكارهم ويتبعون فيها قاعدة الأصلح والانفع لهم . فالحق والباطل يجريان في الدين من وجهين (أحدهما) كون عقائده صحيحة معقولة في نفسها وأحكامه في العبادات والآداب موافقة للفطرة في تقويم الملكات وتهذيب الاخلاق وتوثيق الروابط وشد الاواخي بين الناس وأحكامه في القضاء والسياسة والادارة موافقة لسنن الاجتماع وقواعد العدل ، أو كونها ليست كذلك (وثانيهما) كون عقائده راسخة في عقول الأمة مؤثرة في قلوبها ، وآدابه حاكمة في شعورها ووجدانها ، وأحكامه محترمة عند أمرائها وجمهورها ، أو كونها ليست كذلك . فالدين سنة من سنن الاجتماع الكبرى وهو حق في الواقع أو باطل مؤيد بحق اجتماعي هو وحدة الامة في الاعتقاد والعمل ولاهله الغلب والسلطان على من ينازعهم فيه ويحاول ابطاله أو ارجاعهم عنه من المعطلين لانه إما أن يجمع نوعي القوة في سنن الاجتماع وفي القوانين والمواضعات العرفية التي تسنها الامم لانفسها وتعتقد أن فيه خيرها وحفظ حقوقها كما تقدم وإما ان ينفرد بالثانية . وما اجتمع فيه الحقان يسود على ما اتفق له أحدهما فقط كما ساد الاسلام في أول نشأته على سائر الاديان لانه حق من كل وجه والامة متحدة فيه . والتاريخ يؤيد ما نطق به الكتاب في ذلك بقوله ٤ : ١٤١ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا * وقوله ٣٠ : ٤٧ وكان حقا علينا نصر المؤمنين * ولكن هذا النصر خاص بالمؤمنين حقيقة لا ادعاء أو جنسية كما

قال في آية أخرى ٤٧:٧ يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * ٨ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم * وقال عز وجل ٢٤:٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم — الى قوله — ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » وقد فسروا الكفر هنا بكفر النعمة كالظلم والبغي والافساد في الارض

ونقول ان عمل الصالحات الذي قيد الوعد بالنصر يشتمل مثل قوله تعالى في وصف المؤمنين من سورة الشورى ٤٢:٣٨ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * ٣٩ والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون * ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين * ٤١ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * ٤٢ انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ٤٣ ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور * ومثل قوله ٤:١٣٥ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا * وقوله ٥ : ٨ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون * فهو يأمرهم بالقيام بالقسط دائما وهو العدل وبالشهادة لله بلا محاباة قريب ولا غني ولا رحمة فقير مبطل ويأمرهم ان لا يحملنهم شنآن قوم أي عداوتهم على ترك العدل فيهم بل يحتم عليهم العدل حتى مع الذين يعادونهم

وقد أخبر تعالى في آيات كثيرة بأنه انما ينصر رسله وعباده المؤمنين الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون على الظالمين كقوله ١٤:١٣ فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ١٤٣ ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (ي) * والآيات في هذا المعنى وهو نصر المصلحين في الارض واهلاك الظالمين والمفسدين كثيرة جدا

لا يوجد في مقابل هذه الآيات آية واحدة تدل على أن الله ينصر الذين ينتسبون الى الاسلام وان لم يقوموا بالقسط والاصلاح وينهوا عن الظلم والفساد فهل يجيز هذا الكتاب الحكيم لمدعي الانتماء اليه بالقول دون العمل اذا رأى استيلاء الاوربيين على بلاد المسلمين والافتيات على حكامهم في سائر بلادهم التي لم يتم لهم الاستيلاء عليها أن يقول ان هؤلاء الاوربيين منهم الملحد ومنهم من يقول بالتثليث فكيف سادوا بقوتهم على المسلمين ، وأهل التوحيد وهو حق اليقين ، ؟ كلا انه لا يجيز لهم هذا القول بعد ما بين لهم أنه لا يهلك الامم بالشرك اذا كانوا مصلحين في الارض بالعدل وسائرين على سنن الله في العمران ولكنه يهلك الامم الظالمة مهما كان اعتقادها كما علمت من الآيات التي أوردناها آنفا ومثلها كثير.

وأعظم عبرة للمسلم انكسار الصحابة مع داعي الحق الأعظم (ص) في وقعة أحد لما خالفوا سنن الاجتماع في الحرب فخالفوا العقائد وتركوا حماية ظهر الجيش وفيها نزل ٣ : ١٦٥ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » فكل من خالف سنن الله الحق يغلب على أمره بحق حتى يرجع وما أسرع رجوع المؤمن الى الحق اذا زل عنه

لهذا أقول ان الوصول الى حق اليقين في التوحيد ينافي الاصرار على الظلم ، والتمادي في الفساد والبغي ، كما نطق القرآن وشهد العقل ، فلو لم يجعل الاسلام الاعمال الصالحة بعد ترك المفاسد سياجا للايمان وعنوانا له ودليلا عليه وشرطا لاجتناء ثمراته في الدنيا والآخرة لكان العقل وحده كافيا في الدلالة على أن الموقن بعقله المذعن بقلبه لعقيدة التوحيد الخالص لا يؤثر هواه ولا هوى الرؤساء والحكام على رضوان هذا الاله العظيم الحكيم القوي العزيز وانما رضوانه بالتماس فضله من سننه في خلقه ، والوقوف عند ما حدده من الشكر والعدل في شرعه ، فهو يمضي في تعرف السنن والاحكام والعمل بها لا يخاف في ذلك وثبات الظالمين لقوله عز وجل ٣ : ١٧٥ فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين * وقوله بعد ذكر سنته في الايام يداولها بين الناس ٣ : ٩٠ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين * فهل تنطبق هذه الآيات على قوم يخافون الظالم ان ينهوه عن ظلمه ، ولا يخافون

الله تعالى أن يخرجوا عن حكمه ، وقد جعلوا دينه جنسية ، لا هداية حقيقية ، فهم يرجون سعادة الدنيا والآخرة بالانتساب اليه ، أو بالتوسل والدعاء لاشخاص ماتوا عليه ، وهم مختلفون متفرقون ، متنازعون متواكلون ، جاهلون متكاسلون ، لا يبذلون ولا يتعاونون ، ولا ينظرون ولا يتفكرون ١٢ : ١٠٥ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون * ٤٩ : ١٥ انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون *

هؤلاء الصادقون هم الموعودون بنصر الله وتأييده « ولن يخلف الله وعده » فلو صدق المسلمون اليوم ماعاهدوا الله عليه باتخاذ الاسلام دينا من العمل بكتابه والاهتداء بسنته في خلقه لما غلبهم أحد على أمرهم فلقد صدقهم وعده بصدقهم فيما سلف حتى اذا ما فشلوا وتنازعوا في الامر وعصوه من بعد ما أراهم سلفهم ما يحبون أخذهم بعدله وسلط عليهم من هم أترب الى الاخذ بسننه منهم كما توعدهم بقوله ٤٦ : ٧ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين * (راجع بحث الاختلاف والتنازع في باب التفسير من هذا الجزء)

طال المقال والمبحث يطلب زيادة بيان لا يمكن الاتيان عليه الا في مؤلف خاص به لأن المسألة من أبكار المسائل التي لم يفترعها أحد من الكتاب فيما نعلم والشبهات فيها كثيرة وانما اهتدينا فيها بهداية القرآن وآياته وخلاصة ما أقول في شأن المسلمين مع غيرهم في هذه الازمنة أن من يستخرج من القرآن الآيات الناطقة بسنن الله تعالى في أهل السيادة والعزة من صفاتهم وأعمالهم ، والآيات المبينة لسننه في الأمم المستحقة للإهلاك والاذلال ، ويمرض كل ذلك على الأمم الغالبة السائدة والأمم المغلوبة المقهورة يتجلى له صدق قوله تعالى في سيادة الحق وغلبته وازهاقه للباطل في كل أمة . وهذا النوع من أنواع علوم القرآن ينهض وحده حجة على ان ذلك النبي الأمي الذي بعث في تلك الجاهلية العمياء كان ينطق بوحي من الله ولم يعلمه بشر بل خفيت هذه المعارف العالية عن أفهام أكثر البشر حتى بعد مجيء القرآن بها وانما يظهر صدقها آنا بعد آن برؤية آياته تعالى في الآفاق وفي ترقي البشر

في أنفسهم كما قال ٤١: ٥٣ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»
فعلى المسلمين ان يعلموا انهم أخذوا بذنوبهم، لا بقوة غلبتهم على حقهم، ٤٢: ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» وان معظم هذه الذنوب على عواتق رؤسائهم وكبرائهم، فلا يعذرون باستبدادهم واستعلائهم، وعلى العقلاء وأهل البصيرة منهم - وهم محل الرجاء في كل أمة استعدت للحياة - أن يعلموا أن ليس لهم امام يدعون اليه، ويجتمعون الكلمة عليه، الا هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، فعليهم ان يجتمعوا لهذه الدعوة وان يتناصروا في سبيلها وأن لا ينتظروا نصر الحق من المبطلين، ولا يتوانوا فيها خوفا من الظالمين، فان هذا الامر اذا خرج من أيديهم، يوشك أن لا يعود اليهم، إن الاسلام لا ينصر في الدنيا بالاماني والاحلام، ولا ينجي في الآخرة بالخرافات والأوهام، ان أهل الحق لا يُظلمون، ان الظالمين لا يسودون، ٤٠: ٧٨ فاذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون * ٤٦: ٣٥ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغٌ فهل يُهلك الا القوم الفاسقون * ٦ : ٤٧ قل ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون * وهذه نذره تعالى لقوم لا يعدلون، بل هم بربهم يعدلون، فبادروا أيها المؤمنون الصادقون، ٢١: ٧ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» * ولا تفتروا بدينكم الذي اليه تنتسبون، ولكنكم به لا تعملون، فلقد أنزل الذكر على من قبلكم فسادوا وهم عاملون، ١٩ : ٤٤ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ٤٥ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين * وقد أنذركم ما حل بهم لعلكم تعتبرون، ٢١ : ١٠ لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون * ١١ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين * ١٢ فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون * ١٣ لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون * ٤١ قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين * ١٥ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين * ١٦ وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين * ١٧ لو أردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين * ١٨ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون *